إلى سليمان العيسى : بطاقة حُب من وضاح اليمن

أحمد الأغبري الشعر طريق زاه بالحُلم والضوء

أحمد الأغبري

رحل الشاعر العربي الكبير سليمان العيسى عن دنيانا (9أغسطس2013)،لكن شعره سيظل شلالاً من نور يتدفق بعنفوان الحلم العربي، ينابيعاً وجداول لا يتوقف هديرها لتُسقي حدائق أرواحنا الظامئة؛فتزهر وتزهو قيم الحياة على وقع مهرجان الانسان في أغانيه وقصائده التي أنشدها بصدق وفن قلما يلتقيان في شاعر كبير.

بقي سليمان العيسى على مدى ثمانية عقود من الابداع ، صوتاً للجمال والعقل وبينهما الانسان : الثورة والوحدة والحياة الكريمة، محتفياً بالجمال في أسمى صوره ومعانيه وفي مقدمة ذلك الطفولة ،متموضعاً ،في الصفوف الأمامية في المعركة ضد الجهل والاستبداد والتخلف والتشرذم .

زار اليمن وأقام فيها شعراء عرب وأجانب كثيرون ، لكن الشاعر الكبير سليمان العيسى بزّهم جميعاً بفرادة علاقته بهذا البلد شعراً أعاد من خلاله اكتشاف اليمن في قصائد تأتي ضمن أنضج ما كتبه شعراً ،وترقى إلى مرتبة أجمل وأصدق ما كتبه الشعراء العرب عن مهدهم التاريخي تعبيراً عنها وانفعالاً بآمالها وأحلامها.

خلال زياراته و اقامته في اليمن ،وحتى بعد عودته إلى بلاده ،غنى سليمان العيسى للمكان والتاريخ في بلده (المهد) كما كان يحب تسميته، وصدح بروائع العواطف شعراً ً ساحراً عن الانسان في ترجمات عبقرية لأبسط تفاصيل الحياة اليومية التي عاشها الشاعر في هذا البلد ، فضلاً عن علاقته بالمكان واحتفائه المختلف بأجمل ما في اليمن في كل تلك المشاهد الساحرة التي اسرته خلال تنقلاته و رحلاته في مدنه وأوديته وجباله، والتي أعاد تصويرها في قصائد موقعة بحبات قلبه؛ لتبقى تلك القصائد منارات ضوء خالدة في سماوات أحلام هذا الشعب ..

قد يستغرب القارئ لدواوينه من ذلك الفيض المتدفق من التفاصيل والمشاهد والخواطر اليمانية الحاضرة بمحبة وجمال وفن في قصائده،وهنا نؤكد على أن تجربته الشعرية في اليمن بقدر ما مثلت مدرسة نهل وتعلم منها الكثير من مبدعي اليمن خاصة، فقد برزت مرحلة شعرية متقدمة في تجربة العيسى أحد أهم قامات الشعرية العربية الحديثة.

مرارة احساسنا بالخسارة الكبيرة-تجعلنا عاجزين عن توقيع بطاقة حب وشكر وعرفان (لائقة) باسم (وضاح اليمن) إلى الشاعر الكبير سليمان العيسى ،لكننا نقول بقلوب مكلومة:كيف لليمن أن تنساك وقد أعدت صوغ جمالها شموساً جديدة تشرق في شعرك ونثرك المرصع بالجمال والحب والصدق...نحن اليمانيون نتباهى باليمن في أغانيك ؛لأنك – وهذا اعتراف - قد كنت أصدق منا في اكتشافها وانشادها والإصغاء إلى قلبها. في حضرة قصائدك نجد أنفسنا جديرين بالانتصار لأحلامنا ومستقبلنا.

اليمن لن تنساك واحداً من أبنائها وعظماء أمتها ممن كتبوها صدقاً وجمالاً نصوصاً وشهادات عاطرة للتاريخ والأجيال ، وممن منحوا القصيدة العربية فضاء جديداً اخلصتَ فيه للإنسان ،للأحلام بالانعتاق.

يكفي اليمن أن تُعيد قراءة نفسها من خلال ما نسجته روحك – أيها الشاعر العظيم - من قصائد وأغان ضمتها عناوين واصدارات كان اليمن عرسها ومهرجانها :

- من أغاني المهد :صدر عن دار طلاس – دمشق عام 1987م .ويطلق الشاعر كلمة (المهد) على اليمن منذ بدأ الكتابة عنه
- ديوان اليمن :ضم أربع مجموعات شعرية صدرت طبعته الثانية عن الهيئة العامة للكتاب - صنعاء 1999م
- يمانيات : مجموعة شعرية صدرت عن وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء عام 2004م .
- أمشي وتنأين : قصائد لصنعاء صدرت عن وزارة الثقافة والسياحة – صنعاء عام 2004م .
- ديوان عدن : صدر عن جامعة عدن ، عام 2004م
- اليمن في شعري : مختارات من شعره اختارتها زوجه الدكتورة ملكة أبيض

وبمزيد من المحبة لليمن أصدر الشاعر من صنعاء – خلال اقامته فيها - عدداً من أهم كتبه كان لمؤسسات يمنية شرف اصدارها :

- ثمالات 4: صدرت عن وزارة الثقافة - صنعاء عام 2004م
- الكتابة بقاء :مجموعة شعرية صدرت عن مؤسسة الابداع للثقافة والاداب والفنون – صنعاء عام 2002م .
- الثمالات شعر ونثر باجزائها الثلاثة : صدرت عن الهيئة العامة للكتاب – صنعاء عام 2001م
- من رحلة الظمأ: مختارات شعرية صدرت عن وزارة الثقافة والسياحة – صنعاء عام 2004م

عاش العيسى قصة حب طويلة مع اليمن (المهد) لم تبدأ بقدومه إليها ولم تنته بمغادرته لها : قصة تعجز اللغة وعبارات الوصف عن تقديمها وتصويرها والتعبير عنها بالقدر الذي يفيها حقها .

"منك تعلمنا كيف نذرو أقمار أحلامنا في مفازات اليأس كي تثور سنابل حياة ،وتفوز ينابيع أمل" يقول وزير الثقافة السابق ،الكاتب الكبير، خالد الرويشان في أحد المهرجانات الاحتفائية بالشاعر:"احتفاؤنا بك اليوم ،احتفاء الملايين من احفادك ،احتفاء من أنشدتَ، وغنيتَ، وهدهدتَ ، وأنميتَ ،ورعيتَ .اليوم في صنعاء ،نُهديك – أو بالأحرى- نعيدُ إليك وردةَ حب ووفاء – مجرد وردة – قُطفت من بستان سحرك و حدائق بهائك" .

زار سليمان العيسى اليمن لأول مرة في يناير عام 1972م ، وتكررت زياراته ومعه زوجه الدكتورة ملكه أبيض في مناسبات ثقافية وبعضها مع زوجه كأستاذة زائرة في جامعة صنعاء إلى أن تعاقدت معها الجامعة التي كان يرأسها – حينذاك - الدكتور عبد العزيز المقالح، فاستقر بهما المقام في اليمن لنحو عقد ونصف العقد تقريباً.

ماذا عن اللقاء الأول بين الشاعر واليمن ؟.. يتحدث الأديب والصحفي اليمني الراحل عبدالكريم الخميسي قائلاً:".. مازلتُ أذكر ذلك اليوم البعيد ،كيف استقبلنا شاعرنا الكبير في مطار صنعاء ،وفي يده بطاقتان :الأولى سلمها لمندوب الجوازات ،والثانية لمندوب اتحاد الادباء والكتاب اليمنيين(وكنت أنا ذلك المندوب)...فلما فتحتها وجدتها تحمل العنوان التالي :"بطاقة حب إلى وضاح اليمن " وكانت هي البطاقة التي دخل بها تخوم اليمن ،التاريخ والأرض والانسان ...حيث وجد فيها مهده الأبدي وطفولته الأزلية ؛فأستقر في رحابه واستقر اليمن في وجدانه وصار بين الشاعر وبين هذا البلد أكثر من بطاقة حب وأكثر من رسالة شعر ".

تقول زوجه الدكتورة ملكة أبيض (كتاب وقفات مع سليمان العيسى):"انطلق صوت سليمان العيسى بالنشيد وقلمه بالكتابة عن اليمن :طبيعةً وحضارةً وآلاماً وآمالاً ،تحدوه الدهشة أمام ما يشاهد والعرفان لما يلقى ،فقد طاف معظم أرجاء اليمن والتقى الكثيرين من شيبه وشبابه وأطفاله ".

بكلمات لصديقه شاعر اليمن الكبير الدكتور عبدالعزيز المقالح من مقدمة (ديوان اليمن) نودع شاعرنا العربي الكبير :" سلاماً وسلاماً ،باسم كل اليمنيين من أبناء هذا المهد الذي خصه الشاعر بكل هذا القدر من العواطف والأغاني".

● الراحل/ سليمان العيسى

انزياحات

يحيى الحمادي

لا شَـيءَ بَـينَ الحِبرِ والوَرَقَةْ إلّا حَـبـيـبٌ نَـازِفٌ أَرَقَـهْ
إلّا غَـرِيـبٌ كُـلّـمَـا طَـرَقَـتْ كَـفّـاهُ بَـابَـاً مُوحِشَـاً طَـرَقَـهْ
إلّا حَـزِيـنٌ كَـالـسّـعِـيـدِ ولا يَـدْرِي بِـهِ إلّا الـذي خَـلَـقَـهْ

*****

عَـيْـنَـاكَ مُطـفَـأَتَانِ..لَـم تَـرَيَـا لا دَمْـعَـهُ يَـومَـاً ولا عَـرَقَـهْ
ويَـدَاكَ بَـارِدَتَـانِ..أيـنَ هُـمَـا مِـمّـنْ يُـبَـرِّدُ بـاللّـظَـى حُـرَقَـهْ
و هَـوَاكَ فِـي يَـدِهِ و فِـي فَـمِهِ حَـرفٌ يُـذِيـبُ الـقَـلـبَ إنْ نَـطَـقَـهْ
كَـم لَـيـلَـةٍ وَافَـاكَ مُـحْـتَـمِلاً آلامَـهُ مُـتَـزَمِّـلاً رَهَـقَـهْ
ولَـكَـمْ تَـضَـوّرَ كَـالـيَـتِـيمِ وكَـم سَـدّتْ يَـدَاكَ بِـطَـعْـنَـةٍ رَمَـقَـهْ
لا لَـستَ مَـن بـالـحُـزْنِ شَـكّـلَـهُ و أتَـى بِـهِ, كَـلّا و لا اخْـتَـلَـقَـهْ
كُـلٌّ لَـهُ جُـرْحٌ تَـوَارَثَـهُ و أصَـابَـهُ مُـذْ كَـانَ فِـي الـعَـلَـقَـهْ
جُـرْحَـاكُـمَـا يَـتَـشَـاكَـيَـانِ كَـمَـا يَـشْـكُـو الـغَـرِيـقُ لِـمِـثْـلِـهِ غَـرَقَـهْ
يَـذْوِي و تَـذْوِي أنـتَ فِـي دَمِـهِ و كِـلاكُـمَـا مُـتَـأَبِّـطٌ قَـلَـقَـهْ
لَـكُـمَـا حَـنِـينُ الـعَـيْـشِ فِـي زَمَـنٍ خُـلَـصَـاؤُهُ الـعُـمَـلاءُ و الـفَـسَـقَـهْ
سَـقَـطَـتْ قَـدَاسَـاتُ الـقُـبُـورِ..فَـمَـا مِـن مَـيِّـتٍ سَـيَـعُـودُ لِـلـنَّـفَـقَـهْ
و تَـخَـثّـرَت شِـيَـمُ الـرِّجَـالِ عَـلَـى عَـتَـبَـاتِ أهـلِ الـسُّـحْـتِ و الـصَّـدَقَـهْ
و تَـحَـوّلَ الـمَـأمُـولُ مِـن غَـدِهِم أمْـسَـاً يُـثِـيرُ الـحُـزْنَ و الـشَّـفَـقَـهْ

*****

صَـنـعَـاءُ يـا صَـنـعَـاءُ كُـنـتِ هُـنَـا أَجَـمِـيعُ مَـن حَـمَـلُـوكِ مُـرْتَـزِقَـهْ؟!
كَـيـفَ ارتَـضَـيتِ الـيَـومَ أنْ تَـقِـفِـي كَـالـوَهـمِ بَـيـنَ الـعِـرْقِ و الـطّـبَـقَـهْ
و تَـرَكـتِ مَـن فِـي الـبَـابِ مُـنْـكَـفِـئَـاً مَـا بَـيْـنَ (سُـوقِ الـمِـلْـحِ) و (الـبَـلَـقَـهْ)
هَـذِي تَـعَـافُ الـيُـتْـمَ إنْ وَضَـعَـت هَـذا يَـسُـبُّ (الـقَـاتَ) إنْ بَـصَـقَـهْ
فَـمَـتَـى مَـتَـى يَـلـقَـاكِ حَـانِـيَـةً و مَـتَـى تُـوافِـقُ (شَـنّـهَـا) (طَـبَـقَـهْ)
صَـنـعَـاءُ..إنْ أحْـبَـبْـتِ فَـاحـتَـضِـنِـي و إذا طَـبَـخْـتِ فَـأكْـثِـرِي الـمَـرَقَـهْ

إصدارات

تصف فيه رحلتها من القدس إلى أنطاكية عام 1905

ملكة العراق غير المتوّجة

صدر عن دار الكتب الوطنية في هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة كتاب جديد عن سلسلة "روّاد المشرق العربي" يحمل عنوان "العامر والغامر، رحلة من القدس إلى أنطاكية عام 1905م" للرحالة البريطانية غرترود بِل، وقامت بترجمته وفاء الذهبي، بينما قام بتحريره والتعليق عليه الدكتور أحمد إيبش المؤرخ المتخصص في التاريخ الإسلامي والتاريخ الحديث.

في مقدمة الكتاب يصف د. إيبش المؤلفة المعروفة ب مس غرترود بِل (1868-1926) بأنها "ظهرت في مجتمع بغداد امرأة أنكليزية فريدة احتلت مكانة بارزة ومارست نفوذا واسعا في تأسيس الإدارة الجديدة وفي حكم البلاد – بعد الاحتلال البريطاني للعراق(خلال الحرب العالمية الأولى)وفي السنوات الأولى لقيام الحكومة العراقية تحت الانتداب البريطاني- وشاركت في الحياة السياسية، ودخلت مجتمع الرجال بلا تحفظ، فجالست ساسة البلاد وحكامه من عراقيين وبريطانيين، وشيوخ العشائر من عرب وأكراد، ورجال الدين من سنة وشيعة، وزعماء البلد ووجوهه من موالين للسلطة ومعارضين"

كانت صفتها الرسمية سكرتيرة شرقية للمعتمد السامي البريطاني في العراق، وكان يلقبها الكثيرون ب"ملكة العراق غير المتوّجة" والعراقيون كانوا يسمونها "الخاتون" فهي احدى الشخصيات التي رسمت مستقبل العراق السياسي لسنوات عديدة بعد الاحتلال البريطاني. وهناك عدة ترجمات للتقارير السرية التي كانت ترسلها مس غرترود بِل ترسلها إلى مكتب الاستخبارات البريطانية الخاص بالعالم العربي في القاهرة.

أما كتابها "العامر والغامر" فيضم وقائع أولى رحلاتها إلى المشرق العربي، من القدس إلى أنطاكية عام 1905، وفيه تقدم رواية شخصية ممتعة تطفو عليها آراء المؤلفة الرحالة وتفاعلاتها الإيجابية والسلبية مع ما صادفها من مجتمعات وأشخاص وأماكن،كما نلمح فيه صوراً حية وجذابة عن حياة المجتمع السوري في تلك الفترة، وعن أوضاع الدولة العثمانية وهيئتها الحاكمة، إضافة للأحوال الاجتماعية السائدة، وملامح من حياة عامة الناس آنذاك، في رحلة جريئة رائدة قامت بها بمفردها، وهو أمر غير مألوف بشكل صارخ في عُرف ذلك العصر.

ومن اللافت أن غرترود بِل تصف في مقدمة الكتاب الإنسان الشرقي ب"الطفل الكبير، فهو غير مطلع على الكثير من فروع المعرفة، التي أصبحنا نعتبرها حاجة أولية، وعادة وليس دائما، ما يشغل عقله بالحاجة لإحرازها، ونادرا ما يشغل نفسه بكل ما ندعوه منفعة عملية،وهو لا يزيد في مقدراته العملية عن طفل إذا صح التعبير، ومتطلباته تختلف عن متطلباتنا. ومن جهة أخرى فإن عمله محكوم بعادات السلوك والاخلاق التي تعود إلى بدايات الحضارة، عادات لم تتغير حتى الآن بأي تغيير مهم في أسلوب الحياة التي يطبقونها وبعيدا عن التي نشؤا فيها."

وتعكس سلسلة "روّاد المشرق العربي" التي دأبت على اصدارها هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة بشكل دوري، استراتيجية بعيدة المدى لإغناء المكتبة العربية بتراث الأجداد، والحرص على جمع كافة المصادر المتعلقة بتراث منطقة الخليج العربي والعالم العربي عموما، خاصة وأن تاريخ الحركة العلمية المختصة بنشر التراث العربي المخطوط يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب. كما ويتوازى ذلك مع الآلاف من نصوص الرحلات النادرة ضمن "أدب رحلات الأوروبيين إلى المشرق العربي"، وكل ذلك في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد ممكن من مواضيع التراث العربي وتقديمها للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصور النادرة.

المياه من أجل الجميع

لا شك أن المياه تشكل أحد الرهانات الأساسية بالنسبة للعالم في المستقبل، حتى القريب منه. ذلك أن مليارات من البشر لا يزالون يفتقرون إلى مياه الشرب. كما أن القحط وشحّ المياه، يضغطان أكثر فأكثر.

إن العديد من الدراسات والمؤلّفات والمؤتمرات جعلت من «المياه» موضوعاً لها. ولعلّ من آخر سلسلة الكتب في المضمار، الذي قدّمه أحد مستشاري الأمين العام للأمم المتحدة لشؤون المياه، الباحث الفرنسي جيرار بايان: «المياه من أجل الجميع»، ويطالب فيه بضرورة: «التخلّي عن الأفكار الجاهزة ومواجهة الوقائع»، كما يقول عنوانه الفرعي.

على صعيد «حاجة الوصول إلى مياه الشرب من أجل العيش»، يشير المؤلف أوّلاً إلى أنه في العديد من البلدان الفقيرة، يمضي أشخاص كثر ساعات كل يوم، بحثاً عن مياه الشرب.

يشرح المؤلف، أنه في إطار نشاطات المشروع الذي يديره «أونديو»، توفر مياه الشرب لنحو 115 مليون شخص في العالم. هذا مع تحديد القول إن مجال هذا النشاط الأساسي، البلدان النامية، التي يطلقون عليها تسمية «العالم الثالث»، وكذلك في بعض البلدان المتقدمة. ويلفت إلى أنه في أماكن عمل المشروع الأساسية، التي يقطنها نحو 45 مليون نسمة، هناك نسبة تقارب 30 بالمائة من السكان، يعيشون في مستوى «دون عتبة الفقر»، أي ما يعادل 9 ملايين نسمة. وهذه النسب تبدي طبيعة الرهانات المتمثلة في الفقر عامة.

إن المؤلف يشرح على مدى العديد من الصفحات، الأسباب والتوجهات في اهتمام مؤسسة خاصة، مثل التي يديرها «أونديو»، يُفترض أنها تسعى إلى الربح المادي، وبالتالي عليها الاهتمام بالأحياء الثرية حيث يستهلك القاطنون كميات كبيرة من المياه. السبب الأول يتعلّق باحترام «العقود» المبرمة. والثاني هو أن المياه «موضوع» يخص جميع البشر، وبالتالي يخص بقاء المشروعات الخاصّة العاملة في هذا القطاع العام.

وفي القسم الثاني من الكتاب، المكرّس لـ«التطور العمراني» في المدن، يشير المؤلف بداية، إلى أنه في أفق عام 2015، ستكون هناك 23 مدينة من أصل الـ33، الأكثر سكاناً في العالم، وموجودة في أحد بلدان العالم الثالث. هذا في الوقت الذي يعيش فيه 45 بالمائة من سكان أمم العالم الثالث في مساكن تعاني من قدر كبير من الهشاشة. وبناء على مثل هذا الواقع، لا بد من تحصين القدرة على تطوير مشاريع تحت عنوان «المياه من أجل الجميع».

وفي خاتمة الكتاب يشير المؤلف إلى أن هناك اليوم في العالم أكثر من مليار شخص لا تتوافر لهم المياه الصالحة للشرب، وأكثر من 2,5 مليار لا يمتلكون شبكة لتصريف المياه المستخدمة. وهذه الأعداد لا تزال مستقرة منذ عقد من الزمن.

المؤلف في سطور

جيرار بايان، أحد مستشاري الأمين العام للأمم المتحدة. خبير دولي في مسائل البيئة عامة، والمياه بشكل خاص. إذ يرصد، منذ أكثر من ثلاثة عقود، المشكلات المتعلقة بالمياه على الصعيد العالمي. ويسهم في جميع المؤتمرات الخاصة بالموضوع.